الوحدة الفنية في قصائد ياسين جابر

د . عمر الساريسي - الأردن

كما كتبت عن قصائد عبد الرحمن بارود قبل جمعها ونشرها، كذلك أكتب اليوم عن قصائد ياسين جابر. ما يجمع بينهما، ليس النسق الفني المتميز فحسب، ولكن الزهد في إذاعة إبداعه على الناس أيضا. فلطالما تكررت دعوة الصديق علي فريج للدكتور بارود لتهيئة قصائده للنشر، ولولا إقدام محمد علي دولة، مدير دار الفرقان للتوزيع والنشر في عمان، حينئذ، على جمع هذه القصائد ونشرها في « مجموعة غريب الديار» لما رأت النور. ولطالما دعوت أنا الصديق ياسين جابر، منذ أن عرفته قبل نحو أربعة عقود، لجمع قصائده، وكانت في البداية، عمودية محافظة، ثم تحولت إلى قطع من شعر المقاومة في المرحلة اللبنانية، وبشعر التفعيلة وأنا أقترح عليه ذلك، وربما سمع ذلك من الناقد البصير منير شفيق ومن غيره، وقد نشر أغلب هذه القصائد في مجلة « فلسطين المسلمة ».

◁ الوحدة الفنية:

وتحت يدي من هذه القصائد قصيدة «مواويل» وقصيدة «السحر تبطله العمائم بالسلاح» وقصيدة «وعد الآخرة» وقصيدة «على مذهب الحوزي» وقصيدة «واهب المجد»، وقد ترددت في الحديث عما في هذه القصائد من أبعاد الصورة الفنية، أو آثار التراث العربي الإسلامي، أو وضوح الرؤية ورؤى المستقبل، أو الوحدة الفنية في هذه القصائد. وهذا ما اخترته في النهاية.

والوحدة الفنية، كما هو معروف، توضح بقسمين: الوحدة العضوية، والوحدة الموضوعية، والوحدة العضوية يجعلها دارسو النقد الحديث، مع عناصر التجربة الشعرية، وسائل الصياغة وصدق الشاعر، يجعلونها إحدى عناصر تحليل الشعر ونقده. وهي التي يمكن أن يكون من نتاجها وحدة الأثر في المتلقي، من حيث إنها تقدم له عملا أدبيا متماسك القسمات، ببدايته وموضوعه وخاتمته، من خلال عنصر النمو العضوي والتماسك من داخل النص بترابط الأفكار، ارتباط النتيجة بالسبب، ومن الخارج ببعض أدوات الربط النحوي والتشابهات الصرفية المتماثلة.

أما وحدة الموضوع فينتج عنها وحدة المشاعر وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبا به يتقدم العمل الأدبي شيئا فشيئا حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، وتكون الأجزاء كالبنية الحية، لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي

بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر، كما يقول د . محمد غنيمي هلال صاحب كتاب النقد الأدبي الحديث.

نماذج من قصائد ياسين جابر

فهو في قصيدة «مواويل» يوجه حديثه لنفسه ولكل فرد في الأمة، من أجل إيقاظ الهمم نحو العمل الإيجابي والمنتج، بعد استعراض تاريخ الأمة العريض الحافل بالسلبية «والإمعات». ويتوصل إلى هذا الموضوع بتقسيم قصيدته إلى خمس مقطوعات، تبدأ كل مقطوعة منها بكلمة «أفِقْ» . وقد يرى المدقق في كلمة «أفق» هذه حلقات متشابهة لعمل أدبي واحد، تعمل هي على وحدته العضوية والموضوعية ، فهي تشبه ما يسمى اليوم «بالمحطة» في الطريق الطويل، تربط أوله بوسطه بآخره.

ففي المقطوعة الأولى كانت الإفاقة محدودة تتناسب والمقدمة التي تمهد للموضوع التالي لها، حيث الإفاقة الثانية أطول، وفيها كشف عن أوضاع الأمة التي يشبهها بالدوارق المصفوفة، أما الإفاقة الأطول فهي بعد «أفق» التي بعدها، وفيها الكشف الأكبر عبر عدة رموز تراثية مثل امرئ القيس وقبيلة الأراقم وغرناطة، عما يرين على قلوب الناس في هذه الأمة من التباطؤ في معالجة هموم التأخر والحصار الأجنبي.

ويختم قصيدته في «أفق» الأخيرة، وهي مختصرة الحجم الذي يشعر بالختام، ومنها يقول:

ياسيدا للتجاوز
أين مواويلك الخالدات؟
وأين زمان انثيالك؟
مازال فيك الرجاء.

إنه في الفقرة الأخيرة من هذه القصيدة ينهي «مواويله» نهاية طبيعية لكل الإفاقات السابقة المتدرجة في النهوض والمواجهة والوقوف في وجه العدو.

عبدالرحمن بارود

وبهذا يتضح عنصر النمو في أجزاء هذه القصيدة من البداية إلى النهاية، وهو سر الوحدة العضوية، وهي جزء من الوحدة الموضوعية.

وفي قصيدة «السحر تبطله العمائم بالسلاح» التي تؤرخ لخروج اليهود من جنوب لبنان، تحس كأن أجزاء هذا العمل الأدبي يتجاوب بعضها مع بعض، من الداخل لتكون (سيمفونية) متكاملة الأنغام تعزف في هذه الحادثة الجليلة.

فهو منذ الأسطر الأولى يتحدث عن النصر:

فجر يغذ خطاه
بين العتمة الأولى
وترجيع الأذان
مساقة مرهونة للنصر

ويأتي هذا النصر في الصباح:

تهل البشائر في الصباح

ويتكرر ذكر الصبح، فهو يقول في السطر العاشر:

والصبح يؤذن بافتضاح.

وبعد هذا بعدة أسطر

ثم ملاح يلوح بالمشاعل والجراح
في صباح النصر

وبعد هذا بعدة أسطر أخرى:

تندى الشقيف دما
تجاور نجمة الصبح

ويردد ذكر اسم قلعة الشقيف، قلعة الفدائيين الأبطال، فيقول بعد ذكرها الأول بأسطر:

هل نتبادل الذكرى على ساح الشقيف

وفي نهايات القصيدة يقول للجندي المنتصر:

أيها الملاح
واسحب ظلك العالي على الأرض اليباب
أنت الذي قرأ الدم المكتوب بالأمية الفصحى

ولعله يريد بالأمية الفصحى لغة كثير من العوام الفاعلين في الجهاد ضد الأعداء،

وهم في الأمية الأبجدية لا يكتبون ولا يقرؤون.

وفي قصيدة «وعد الآخرة» التي يأخذ عنوانها من آية كريمة من سورة الإسراء، يبدأ بقوله:

أفديك قد ولى الشباب
ومضى الأحبة والصحاب
غالتهم الأيام عشاقا وعزهم الإياب
ذهبوا وأنت على رصيف العمر
تنشد ما تبقى من مواويل
يجرّحها على الأمل ارتياب.

أما نهاية القصيدة فيختمها على النحو التالي:

هذا زمان كتابة التاريخ بالسكين
أيها الثغري تبر ما علوت
الشاطئ اشتعلت به البشرى
وعاوده الشباب

إنه في البداية يرسم ظلا من الحزن بسبب فقد الشباب المجاهد في المرحلة الأولى من المقاومة الفلسطينية والعمل الفدائي في بيروت وغيرها، وهو في الخاتمة، يشعشع الأمل بعودة العمل الجهادي الفدائي الذي يجترح زمان كتابة التاريخ بالسكين، حيث يدعو «الثغري» المقاتل على الحدود بين العرب وإسرائيل، «تبر ما علوت» واللفظة من آيات سورة الإسراء «ويتبروا ماعلوا تتبيرا». ذلك لأن الأمل حل محل الشك والارتياب «فالشاطئ اشتعلت به البشرى» بسبب أن عاوده الشباب».

وبين البداية الموحية بالشك والارتياب والنهاية المشعة بالأمل، في عودة العمل النضالي ضد العدو، ينهض عنصر نمو الشعور بالأمل نموا خفيا، مما يجري من حوار بين الشاعر وبين امرأة يهمه أمرها، فهي تقول له:

ما للبنفسج ينشر الرايات في
محراب روحك كلما اتقدت
خواطرك الغضاب
.....
ها أنت بين مجامر الذكرى
وأوهام السلام
تنوء بالمترادفات ويستبد بك العصاب

فهي تذكر له أنه تمسك بالماضي وبالخطب الغاضبة،

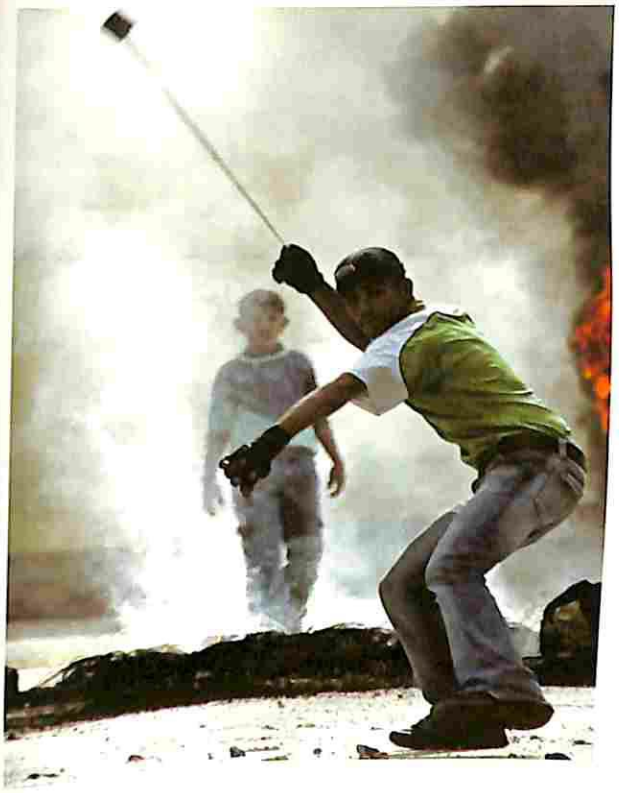

ويرد عليها:

ارفقي
هل يستقيم الظل والعود اعوجاج واستلاب؟

لكنه ، والزمن يتقدم نحو العودة إلى روح المقاومة، يقول:

تلك القبلة الأولى
وتلك الصخرة الأولى
تراءى الوشم لماحا على زنديك
فيض دم على الأقصى
وكم جبل التراب
هذا زمان كتابة التاريخ بالسكين
دفق نبوءة صدقت

هذا زمان كتابة التاريخ بالسكين والمقاومة المؤمنة بالحق المسلوب، وهذا زمان وعد العودة الآخرة أو الأخرى لبيت المقدس، وهنا يقول الشاعر:

غنيت للجرح المقاوم
أيها الجرح اتسع سعة البلاد
الأمن عجل السامري فلا يبيت
بغير خاصرة تسيل دما

إن القصيدة تنتقل بنا بخفاء مريح من بؤس الشك إلى ابتسام الأمل.

ويوجه الشاعر، من بعد هذه المقدمة، ثلاثة نداءات للشهيد، واهب المجد، يتخللها نداء للعدو التتري لتصبح هذه النداءات محطات النمو الانفعالي والإدراكي في هذا العمل الأدبي. ويكون النداء الأخير خاتمة القصيدة الذي يذكر بمطلعها في حركة الخيل العاديات على القدس، لتتكامل أنساق القصيدة تكاملا عضويا أولا، وموضوعيا ثانيا.

في النداء الأول للشهيد يذكره بمنزلة القدس «في حمأة الحقد والقتل»، أمام الهجمة اليهودية الحاقدة»، وإن هذا الفتى الشهيد ابن عشر «يحاصر من التصحر في القدس».

وفي النداء الثاني يخاطب الفتى بين يدي التاريخ الذي يسجل بطولات الأفراد في الأزمنة الصعبة :

أنت النجابة والنخوة البكر
دعوتك يا واهب المجد
على عطش جئت
الكبرياء ذؤابة مقلاعك الوعد
والحجر اللؤلؤي انبهار اليواقيت

ففي المقلاع والحجر الذي صار من اللؤلؤ والياقوت قلب المعادلة في وجه الطغيان والظلم.

وفي النداء الثالث والأخير يرى الشاعر في طفل الحجارة بشارة النصر والتحرير، وهو اختتام طبيعي للمقدمة التي قلنا إنها واعدة بالنصر وتحرير القدس، وذلك من أجل أن يختتم النص ختاما طبيعيا ، طبقا للوازم الوحدة العضوية أولا، والموضوعية ثانيا، وهما معا يشكلان الوحدة الفنية بوجه عام، ومن الوحدة الفنية تكون وحدة الأثر في تلقي المتلقين واستقبال الجماهير.

هذه نماذج أربعة لما يبدو في قصائد الشاعر ياسين جابر من وحدة فنية تترك في القارئ وحدة الأثر في الإحساس بالموضوع المطروح، وفي إدراك الأبعاد المطلوبة من الأفكار المذكورة في هذه الأعمال الأدبية ■

فرصة مهدرة

عصام الغزالي - مصر

إذا عشت شهرا فما أكثرهْ
وإن عشت دهرا فما أقصرهْ
فأعتقْ مِنَ الظلم مَنْ ظُلْمهم
مضافٌ إلى ظلمة المقبرهْ
ومازلت والله في فسحة
غدا تصبح الفرصةَ المهدرهْ
وما أنت ناج إذا ضيعت
ومَنْ يعتصم مِنْ حساب يرهْ
ولا كاسبا من عناد الهوى
سوى فقد ما شئت أن تخسرهْ
تذكر نذير العزيز الذي
جرى كل أمر بما قدرهْ
وأعطاك من فضله نعمة
فألهتك عن موقف أخَرَهْ
متاع الغرور الذي أنت في
أمانيِّه شاهر خنجرهْ
فقل : هذه جمرة في يدي
وليست – وإن لألأت – جوهرهْ
إذا عشتُ شهرا فما أقصرهْ
وإن عشتُ يوما فما أكثرهْ